

فُكَاهاَت

رَقَائِصُ

— الغاية لا تبرئ الواسطة (١) —

حدث في آخر الحروب التي شبت نارها بين جنود الدولة الاسبانية الحاضرة وأنصار الدون كارلوس المطالب بعرش اسبانيا أن فتى يدعى جوان أراكويل عشق فتاة تدعى بيبا ابنة رجل اسمه شينغاري قاطن بين قرية هرناني وقلعة سنتا بربرة وكان هذا الرجل من كبار الزراع في تلك الناحية وله اربع او خمس مزارع خصيبة فيها من شجر التفاح شي كثير يرى في إبان الثمر رازحاً تحت احمالٍ من هذه الفاكهة كأنها عناقيد من نهود الحسان او كأشربةٍ وقفن بلا اوان . وكانت ابنته المشار اليها فتاة رائعة الحسن بابلية الا لحاظ سحارة الحركات والالفاظ

خطت يد الحسن في مصقول جبهتها سطرًا ملخصه سبحان من خلقا وكان الفتى الذي تعشقها مقيمًا في بلدة تدعى لويولا قريبة من تلك الناحية وهو شاب يبلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة طويل القامة بهي الطلعة وقد رأى الفتاة ذات يوم فأحبها وحلت منه محل مهجته واخذ يتردد عليها الى ان تمكنت روابط الود بينه وبينها ثم خطبها من ابيها فاجابه

(١) معربة عن الفرنسية بقلم خليل افندي الجاويش

ما كنت لأمنعها منك لولا انك رجلٌ فقيرٌ لا تصلح لابنتي . فقال له
وهل يمنع فقري من تزوجي بها وهي قد صرحت لي بانها تهواني ولا تميل
الى سواي . فقال الوالد انها اخبرتني بذلك ولكن الفتاة يجب ان تطيع
والدها ولا سيما في امرٍ يتعلق بمستقبل حياتها . فقال جوان لقد صرت
مجنوناً بحبها وصارت هي معبودي فاذا لم تعطني اياها قتلت نفسي فما الذي
يجب عليّ ان افعله لاحصل عليها . قال افعل كما فعلت انا اي اعمل واكتسب
ما يقوم بحاجات زوج وزوجة ويكفل بتربية بنين وبنات ولا تطمعن في
مالي اذا تزوجت ابنتي فاني لم اقض حياتي في الدأب والنصب لاعطي ما
جمعه من المال بكدي لرجلٍ لم يتعب ولا مال عنده يغنيه عن مالي ولا
هو ذو حرفة ولا منصب وليس له من عملٍ سوى الجولان في الساحات
فكيف يجوز لي وتلك حالك ان ازوجك بابنتي واعطيك فوقها مالي اية
امتلك بمال وجمال وانت وادع مستريح . فاذا جئتني بعد مدة وقلت لي اني
قد جمعت من المال ما اتمكن به من فتح بيتٍ زواجك بابنتي لانها تحبك
ولم ابخل عليك بها لان الفتاة مصيرها الى الزواج وتزوجها بمن تحبه اضمن
لراحتها واهناً لعيشتها . فقال جوان وكم هو المال الذي ينبغي لي ان احوزه
لاصير اهلاً للزواج . فاجاب والد الفتاة الفا دورو (عشرة آلاف فرنك)
فاتقبض وجه الفتى وقال هذا قدر كبير فاني لي ان احصل عليه وكيف
السييل للوصول اليه . فاجاب الوالد من جد وجد اما انا فقد جمعت ثروتي
من تراب الارض ففتش تجد واطلب تل ومن سعى رعى . فانصرف
الشاب وهو موقن بان امامه احد امرين اما ان يقتل نفسه ليخلص من

عذاب الحب واما ان يحرق الارض للحصول على المال المطلوب وبغير ذلك لا يحصل على حبيبته لانها لا تعصي والدها ووالدها من الذين لا ينقضون قولاً ولا عزمًا ولكن بما ان الفتاة تهواه وتستعيت في حبه فهي ولا شك تنتظره ريثما يحرز المهر لانها باحت له في مواعدها الخفية وفي احاديثهما امام والدها بانها تحبه حباً لا ينزعه من صدرها سوى الموت بل قد اقسمت له انها لن تقترن باحد اذا لم يتسن لها الاقتران به . فشدد هذا القسم عزمته وحمله على ركوب الاخطار لتحصيل ثمن الحبيبة على ما قال والدها والعشق يحول الجبان شجاعاً وينفخ في صدر الكسل روحاً يصيره هاماً مقداماً فكيف اذا كان العاشق كهذا الذي جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً

وذلك أن جوان اراكويل هذا كان في طليعة الشبان الموصوفين بالبسالة والاقدام في ميادين المصارعة على حسب عادة القوم فكان اذا قاتل ثوراً قتله بطعنة واحدة واذا خاض غمار مشاجرة جندل عدوه فلقاه مخرجاً بدمائه واذا اقدم على امر عظيم وضع روحه على كفه وباعها بارخص الاثمان في مواقف الهلاك والتلف وكانت هيئته تدل على الفروسية والنخوة وقامته قامة جبار يخيف منظره ووجهه حاوياً اللف معاني الجمال في الرجل ويذاه شيهتين بيدي امرأة ناعمة مهفهفة ومورد معاشه من رهان يربحه في مصارعة الثيران او مقارعة الابطال في ميادين بلباو وتولوزا وسلاحه السكين والخنجر ولسان حاله ينشد على الدوام « انا ابن جلا وطلاع الثنايا »

وحدث ذات يوم في مدينة سان سيبيستيان أن بطل الميدان عجز

عن قتل ثورٍ ضخمٍ كان يصارعه فجعل جوات يصفر استهزاءً بالمصارع
ويهرز كتفيه استخفافاً به فصاح به الحضور هلم إلى المعترك ان كنت
فتى . فلم يحجم دقيقة واحدة بل نهض وحيّاً وتناول السيف من المصارع
ووقف امام الثور وحدق اليه ضاحكاً ساخراً ثم بادره بطعنة في عنقه فخرّ
قتيلاً ودمه يتدفق كأنه من فم قربة ثم التفت الى القوم فحيّاً وانقلب راجعاً
بين الهتاف والتصفيق . فاستشاط المصارع وزملاًؤه غيظاً واحاطوا به وهم
يضمرون له سوءاً فقفز كالغزال من فوق رأس احدهم ورجع الى مكانه
تاركاً حلقتهم كما كانت وهم ينظرون اليه مبهورين كأن صاعقة نزلت عليهم
فهتت قواهم وحلت قوائمهم . ولما كان المساء شاجر احدهم وراء الميدان
فطعنه هذا بسكين في صدره فحملوه الى منزله حيث بقي خمسة عشر
يوماً يعالج من جرحه وآلى على نفسه وهو في فراشه أن لا بدّ له من
قتل ثورٍ ومصارعٍ معاً وهكذا شأن هؤلاء الناس في اسبانيا لا يكاد جرحهم
يلتئم بعد ان اصبغ الموت منهم اقرب من جبل الوريد حتى تراهم بعد شهر
في الميدان وفي اليد الواحدة راية الصراع وفي الاخرى سيف النزال وكان
جوان من طيبتهم وان لم يكن من ارباب حرقهم . وكان عنده ايضاً ادوية
ومراهم للجراح يتخذها من اعشاب الجبال وفي جملتها دواء سام وضعه في
خاتم باصبعه حتى اذا وقع في خطر او تعرض للعطب قتل نفسه بيده في
لحظة لان الانسان في رأيه يجب ان يكون مالكا زمام حياته على الدوام
يقطع حبلها متى اراد ويلقى منيته انى شاء

وفي تلك الاثناء كانت الحرب قد اضطرم سعيها واحتدم شواظها

وكان كلما برز الدون كارلوس في مكان زادت الحرب اتقاداً وزاد انصاره
مكافحةً وجهاداً ينسلون من كل صوب لنصرته متحفزين للاستماتة في
سبيل دعوته تاركين غلالهم في البيادر والاجران طعاماً لاسراب الطيور
وخيوش الجرذات وليث القتال قائماً على هذه الحال ثلاث سنوات بلا
مهادنة ولا انقطاع بين فريقين من بلد واحد يتساحقون ويتطاحنون
كانهم اقساموا ان يفني بعضهم بعضاً ويسلموا بلدهم للغريب او ينتصر احد
الفريقين على الآخر

وكان اهم واشهر ما جرى في تلك الحرب الاهلية حصار مدينة بلباو
حصرها انصار الدون كارلوس وشدوا عليها وثاق الحصر وكانوا مرابطين بينها
وبين سان سيبستيان وجموعهم منتشرة في مضائق الجبل وسنوحه فكما
هجم عسكر الحكومة لمقاتلتهم ردوه على اعقابه خاسراً مشئت الشمل .
وكان قائدهم بطلاً مغواراً يدعى زوكاراغا وكان قائداً من قواد الجيش
الاسباني فاعاد سيفه الى حكومته وقال لها اعطي هذا السيف لغيري
ليقاتلني به اما سيفي انا فقد استلمته من ملكي ومولاي . وكان عمر هذا
البطل ثلاثين سنة وهو طويل القامة مهيب المنظر وكان قد قام بجيشه على
حراسة الجبل كانه اسد رابض عند فريسته فلا يدعها تفلت من مخالبه الا
بالموت . وكانت الدولة تجرد عليه كل يوم جيشاً جديداً فيدحره ويرده على
الاعقاب فعظم بذلك قدر الرجل ووقعت هيئته في القلوب وصار ذكره
يروع ابطال الدولة كلما فل لها جيشاً وهزم خيساً عرمرماً فلا يقدمون عليه
الا يقلوب واجفة وعزائم واهية

اما قائد جند الدولة الاسبانية واسمه جاريدو فكان مرابطاً في
هرناني وهي بلدة صغيرة بتلك الناحية وكان كلما رجع عسكره مقهوراً عن
المواقع التي يحميها خصمه يستشيط غيظاً ويلتهب قلبه حزناً على من يفقده
من ابطاله ثم يشتهي الموت اذا لم يكتب له النصر ولم يتمكن من قتل نده
وانقاذ المدينة المحصورة

وفي ذات مساءً بينما هو مفكر حزين تارةً يطرق في الارض من
شدة هواجسه وبلابله وتارةً يصوب نظراتٍ ملؤها التفجع والاسى الى
جنوده الراجعة على قدم الهزيمة برز اليه فتى جميل الصورة وصوب اليه
بصراً احد من شفرة السيف الصقيل وقال له بصوت اجش هل تهب لي
ما اطلبه منك اذا تكفلت لك بقتل عدوك زوكاراغا . فقال له القائد من
انت يا من تخاطبني بهذا الكلام وهل مثلك يستطيع ان يفعل ما لا اقدر
انا على فعله وقد شابت ناصيتي في حروب مرآكش وخرق الرصاص جلدي
حتى صار كالغريال . فاجاب الفتى انا احد سكان هذه الناحية واسمي جوان
اراكويل رجل لا يهاب الموت ولكني اقسمت ان احرز لنفسي ثروة من
المال . فقال القائد وهو يصعد فيه بصره اذا كنت من اهل هذه البلاد
فلماذا لم تلحق بجيش الدون كارلوس . فاجاب لاني لا طمع لي في الدنيا
ولا احب منها سوى امرأة لو رأتها الشمس ما طلعت . فقال القائد وهل
هذه المرأة خطيبتك . فتهد واجاب حبذا لو كانت ولكنها ابنة زارع غني
وانا فقير فلا اطمع في نيلها منه الا اذا صرت غنياً فاذا كانت حياة عدوك
تعديل الثروة التي اطلبها فانا لها . فقال القائد ان حياته تسوى اكثر مما

تطلب لانها مقابل حياة الوف من عساكري الذين احبهم كاولادي فاذا ارحمني منه كان ذلك سبباً في حقن دماء اولئك الابطال الشبان واغنيتك وجعلتك من اسعد الناس حالاً فودعه جوان وانصرف ومضت ايام دون ان يسمع عنه خبراً فحسب انه كالمجنوناً . ثم تأهب لمفاجأة عدوه في الليل واقتحام مضيق الجبل مستنيراً بوميض البارود ونيران المدافع

اما اراكول فذهب بعد مفارقتة للقائد جاريدو يتفقد اكناف المتاريس المتحصنة فيها عساكر الاعداء وفي جيبه سكين ماضية يطلقها كالرصاصة على الهدف بقوة ساعده المفتول . وكان ينام في الفلاة القريبة من محل القائد ليرصد فرصة الفتك به على غرة منه وقصده في احدى الليالي الا انه بينما كان يدنو من المزرعة التي ينام القائد فوق اطلالها اطلق عليه العسس رصاصة مرت عند رأسه فعاد ادراجه أسفاً على ضياع الفرصة . وفي الليلة التالية التي نوى جاريدو ان يهجم فيها على عدوه زوكاراغا كما تقدم اختبأ جوان في حفرة تشبه وجار الثعلب وفي عزمه ان ينقض على فريسته في الساعة التي عينها جاريدو لهجوم عسكره لان زوكاراغا لا بد ان يخرج في تلك الساعة لملاقاة خصمه فينصب عليه ويطعنه بسكينه الطعنة القاضية في معمعان القتال

فلما اقبل جيش جاريدو نشب عراك شديد استقتل فيه الفريقان وكان الليل حالك الاديم والعساكر الملتحمة يقتل بعضها بعضاً غير عالمة من تقتل حتى اذا بدا حاجب الصباح قفل كل فريق عائداً الى مرابطه وقد دارت الدائرة على عسكر جاريدو ولكن زوكوراغا اصيب برصاصة كسرت

عظم نخذه فينما كانت عساكره تحيي طلوع الفجر بهتاف النصر أتي به محمولاً على خشبة ووُضع امام المنزل الخرب الذي ينام فيه فساد السكوت وعمّ الحزن والاسف وكان اراكويل قد أُسر في من أُسر من عساكر جاريدو واقام جماعة من العسس يحرسون الاسرى وهو بينهم

وكان الضباط قد تألبوا حول القائد من كل جهة وجثوا امامه وهم ينظرون الجرح ويفحصونه ثم صاح احدهم بجراح العسكر ودار آخرون يفتشون عنه ثم رجع احدهم والدمع ينحدر من اجفانه وقال لقد وجدوا الجراح مقتولاً برصاصة وجثته فوق جثة جريح كانت يعالجه في اثناء القتال . فطاشت احلام الجماعة واشتد قلقهم على زعيمهم وخشوا ان يكون جرحه ذا خطر او ان ينزف دمه فيموت قبل ان يدعوا له طبيباً من المراتب المجاورة . وحينئذٍ خطر لاحد الضباط ان يبحث عن طبيب بين الاسرى فدلف نحوهم وصاح هل بينكم طبيب او جراح . فاخذ بعضهم ينظر الى بعض ولم يجب احد على سؤاله لانهم كلهم عساكر ليس بينهم من يعرف الطب . ثم صاح اوليس بينكم من له معرفة بتضميد الجراح . فبرز اراكويل وقال بلى انا . فقال له الضباط اتبعني اذاً واخذه الى مكان القائد فنظر هذا اليه وبش في وجهه وسأله عن سبب اسره فاخترق له سبباً وقال ان لي اقارب اعزاء في مدينة بلباو هزني الشوق اليهم فخاطرت بنفسي وسرت الى المدينة ليلاً وكان القتال ناشباً فوقعت اسيراً بلا ذنب ولا جريرة لاني لست معكم ولا انا عليكم . فقال القائد انت تقول انك خبير بصناعة الطب فهل تستطيع ان تخفف آلامي وابرز له فخذه وهي مضرجة بالدم فنزع

جوان ردائه ومزق قطعة من كم قميصه وصب عليها بضع قطرات من السائل السام الذي في خاتمه وفرك القطعة بها ثم دنا من القائد فمد ساقه نحو الفتى وهو يئن ويتوجع فالتصق الخرق المبلولة بسائله على الجرح وربطها برفادة . ولما فرغ من عمله قال له القائد لقد عفوت عنك واطلقت سبيلك فاذهب بسلام مشكوراً على مروءتك وحسن صنيعك فلبس جوان ردائه ومد اليه القائد يده فصافحه وحيماً الضباط باحتشام ثم حياً رفاقه الاسرى ومضى يسير على مهل بلا خوف ولا وجل

وفي ذلك المساء تقدم جماعة من العساكر الى القائد جايدو في قرية هرناني وهم محيطون بالفتى جوان وكان القائد مشرد الفكر شديد الحزن والنم يناجي نفسه بالانتحار بسبب هزيمة الليلة البارحة التي اصابته جيشه فلما رأى جوان لم يحفل به بل قال له مغضباً ماذا تريد يا فتى اولست انت الذي اخبرت اعدائي بميعاد هجومي عليهم . فاجاب اود ان اكلمك على خلوة . فأوماً القائد الى ضباطه بان ينصرفوا عنه واقبل على الفتى يسأله عن السر الذي يروم ان يفضي به اليه فقال لقد قلت ان حياة زوكاراغو تسوى الثروة التي كنت ساعياً في الحصول عليها وقد جئت الآن لاطالبك بهذه الثروة لاني انجزت وعدي لك وبات عدوك في قبضة المنون فانه اليوم يموت او غداً . فقال وكيف ذلك فقص عليه جوان كل ما فعله من اوله الى آخره . فبهت القائد لهذا الخبر ثم قال وهل فعلت ذلك بالجريح بعد القتال او في اثناء القتال فاجاب ذلك امر لا تهم معرفته بل المهم انني ارحتك من عدوك فأنجز وعدك ووعد الحر دين . فقال القائد ان طلبك

حقّ وعدل ثم سأل عن منزل يبيّا ودعا احد خدامه واملى عليه عنوان المنزل واومأ الى جوان وقال للخادم خذ هذا الشاب الى الغرفة السفلى حيث يقيم الحرس وغداً ابليغ القسيس ان يستعد لعقد زواج فنام جوان تلك الليلة وهو تارةً يحلم بحبيته بين ذراعيه وتارةً بانه يسلم الى والدها المال الذي طلبه ثمناً لزواج ابنته اي مهر امرأة حية وثمان رجل ميت . وفي الصباح اتت فرقة من العساكر يقودها ضابط واخذته الى الساحة الكبرى في اكبر شارع من مدينة هرناني وكانت حافلة بالناس والشمس تلي اشعتها الوهاجة على جدران الكنيسة وكانت العساكر مصطفة هنالك والقائد جاريدو واقف مع ضابطه قرب درج الكنيسة وكلهم بالملابس الرسمية والى بضع خطوات منهم وقفت يبيّا كأنها ملكٌ هابط من السماء او قديسة نزلت من جنة الخلد وبجانبها والدها . ثم اتوا بالفتى الى امام القائد وهو تارةً ينظر الى العساكر المحتشدة وحرايها اللامعة وتارةً يتفرس في القائد والفتاة ووالدها فيراها تلي عليه من وراء اهدابها السوداء نظرات غريبة . ثم قال القائد اين القسيس فاتي فالتفت القائد الى والد يبيّا وقال له ها ان جوان اراكويل الذي وعدته بان تزوجه ابنتك قد حصل المهر الذي جعلت زواجه موقوفاً عليه فهل ترضى ان تزوجه بابنتك . فاجاب بصوت اجشّ نعم . ثم التفت القائد الى جوان وقال له هل ترضى انت ان تتخذ يبيّا شيفاراي زوجةً لك . فاجاب بصوت اودعه كل ما في جوارحه من حرارة الحب ولوعة الصباية والوجد . نعم . والتفت القائد بعد ذلك الى الفتاة وقال لها وانت هل تقبلين جوان اراكول هذا زوجاً لك . فدنت

الفتاة من الفتى ورمقته بالحاضها الفتاة واجابت لا . فتأوه الجمع المحتشد
وراء المساكر ثم رددت جوابها بصوت عالٍ وقالت لا . لا . لقد اقسمت
لك ايها الفتى اني لا اقترن بغيرك وسأبرئ بقسمي فلا اقترن باحد ولكنني
لا اقترن بنذل جبان

فانقلبت سحنة الفتى عند ما سمع هذا الجواب ولاحت عليه لوائح
الجنون فاخذ ينظر وهو لا يعقل . وفي تلك اللحظة سرى من طرف
الوادي وسفوح التلال قرع اجراس بطي متقطع يثير الشجون ويستبكي
العيون وكان السم قد اودى بحياة البطل الاسباني زوكاراغا فقامت الاجراس
تصلي على روحه وهي صاعدة الى ربها وتردد صلوات عسكره وأنين ضباطه
فصاح جاريدو لقد مات زوكاراغا والتفت جوان الى ييبا وقال لها تباً لك
يا خائنة . ثم قال القائد لجوان بصوت هادئ ماذا تريد ان تفعل بالمال
الذي استحقته منا . فقال اعطوه للفقراء فاني لا اريد منه شيئاً ثم جثا امام
القسيس وقال بصوت عالٍ اسأل الله لي يا ابت الصفح والمغفرة

وحينئذ بدأت اجراس المدينة تقرر نغم الموتى كاجراس المعسكر
البعيد وعم السكون تلك الناحية ثم نهض جوان والقي على ييبا النظرة
الاخيرة وغاب بين صفوف المساكر ولم يكن بعد ذلك الا قليل حتى سُمع
هزيم كهزيم الرعد فنظروا واذا جوان اراكويل قد خرق الرصاص
صدره فهوى الى الارض يتشطح بدمه فلحق بقتيله ودُفن الاثنان في
يوم واحد